فلان.. ونظيره!

يتحدّثون عن فلان و«نظيره» الروسي او الاميركي او البريطاني فلان! ويقصدون مثله او مساويه. واساساً قالت العرب: «فلان نظير فلان» اي عين كل واحد منهما تنظر إلى الآخر بلا وجَل او حرج او خضوع من اقواهما إلى الآخر. لذا، يشعرون بالإنتصار والنشوة!.. إنه عصر افول الجبابرة عندنا ولربما إلى حدٍّ ما حتى في بلاد النّاس احياناً! اناس عاديون عندنا وحتى ما دون العاديين يكبرون سريعاً في عيون عشيرتهم وطائفتهم وفي عيون انفسهم فينتفخون كضفدعة لافونتين ويتطاوسون! إنهم اولئك المتوارثون وابناء الست واثرياء الحروب والدهور الذين يشبّهون بكبار العالم ماضياً وحاضراً. فهذا شبيه عبد الناصر او العكس، وذاك يتجاوز ديغول ولو ببعض الصفات، وذلك له رأي سديد في نابولين لأنه يتميّز منه..

عصرنا عموماً هو عصر الصغار. ينبري فلان متحدّثاً في حضرة نظيره الأجنبي ويروح يملي عليه آراءه بل فلسفته في الحياة والموت..

ليس الرجال واخواتهم مَن صنعهم مركزهم او منصبهم، فالفيلسوف الفرنسي سارتر دبّج كتبه النفيسة في مقاهي الحي اللاتيني. صحراء شرقنا استحالت جنائن وربوعنا تحوّلت أراضيَ مجدبة او كادت. فاين شارل مالك وميشال شيحا وموسى الصدر والإمام الأوزاعي وشهداء استقلالاتنا المبتورة؟ شيء من التواضع والوطنية والتعقّل يا جماعة! إلامَ نسكر من حبة زبيب ونؤخذ بجمالنا الصناعي ويسحرنا جاهنا الأجوف؟.. كل هذا مجد باطل. إن السيّدة العذراء التي جمعت شرفاءنا العقلاء وحملت حتى الآخرين على اعتبارها عامل توفيق للمواطنين، قالت عن ربّها انه نظر إلى تواضع أَمَتِه فرفعها إليه. فليتمثّل بها مسؤولو الدولة اولاً لكي يرتاح شرفاؤنا إليهم فعلاً فيغدون عندها كباراً ونظراء لنظرائهم الكبار في العالم. إذ ذاك تصير دنيانا سماء او اقلّه رسالة!

د. جهاد نعمان